«ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللَّهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وفي الرّسالة القُشيريّة قَالَ بَعْضهم: «تَوْبَةُ الكَذَّابِينَ عَلَى أَطْرَافِ أَلْسِنَتِهِمْ، يَعْنِي قَوْلَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

وإذا تاب العبد من ذنبه بصدق نيّة، عاقدًا العزم على الإقلاع عن الذّنب، ولكنّه ضعف وعاد إليه ثانية، فباب التّوبة مفتوح له لا يُغلق في وجهه ما دام يتوب من المعصية ويندم على فعلها ويستغفر ويعزم على التّخلّص منها، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53].

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ».

وروى أبو داود والتّرمذي بإسناد حسن عن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَرَّ مَنْ

اسْتَغْفَرَ وَلَوْ فَعَلَهُ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».

رابعا: رد المظالم إلى أهلها.

وقد قال أبو بكر الدَّقَّاقُ المصري في تفسير التّوبة النّصوح: «هِيَ رَدُّ الْمَظَالِمِ، وَاسْتِحْلَالُ الْخُصُومِ، وَإِدْمَانُ الطَّاعَاتِ».

وروى البخاري والتّرمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ! فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

الأستاذ الدكتور موسى إسماعيل
www.drmoussa.com

شُرُوطُ التَّوبَةِ

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أمّا بعد؛ فإنّ للتّوبة شروطًا أربعة، وهي: النّدم، والإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها أبدًا، وإذا كانت المعصية متعلّقة بحقّ الآدمي يُزاد عليها شرط رابع وهو ردّ المظالم وأداء الحقوق إلى أهلها.

وفي هذا المعنى يقول الإمام الجنيد رحمه الله: «التَّوْبَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا: النَّدَمُ، وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْمُعَاوَدَةِ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالثَّالِثُ: السَّعْيُ فِي أَدَاءِ الْمَظَالِمِ».

ويقول عبد الله بن المبارك رحمه الله: «النَّدَمُ وَالْعَزْمُ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ، وَرَدُّ الْمَظْلِمَةِ، وَأَدَاءُ مَا ضَيَّعَ مِنَ الْفَرَائِضِ، وَأَنْ يَعْمِدَ إِلَى الْبَدَنِ الَّذِي رَبَّاهُ بِالسُّحْتِ فَيُذِيبُهُ بِالْهَمِّ وَالْحَزَنِ حَتَّى يَنْشَأَ لَهُ لَحْمٌ طَيِّبٌ، وَأَنْ يُذِيقَ نَفْسَهُ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَاقَهَا لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ».

وتفصيل هذه الشروط كالآتي:

أوّلًا: أن يقلع عن المعصية:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا

وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135)﴾ [آل عمران: 135].

وجاء عن قتادة في تفسير الآية أنّه قال: «فَإِيَّاكُمْ وَالْإِصْرَارَ، فَإِنَّمَا هَلَكَ الْمُصِرُّونَ الْمَاضُونَ قُدُمًا، لَا يَنْهَاهُمْ مَخَافَةُ اللَّهِ عَنْ حَرَامٍ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَتُوبُونَ مِنْ ذَنْبٍ أَصَابُوهُ، حَتَّى أَتَاهُمُ الْمَوْتُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وقال ذو النّون: «الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ إِقْلَاعٍ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ».

وقال الحارث بن أسد المحاربي: «الَّذِي يَبْعَثُ الْعَبْدَ عَلَى التَّوْبَةِ تَرْكُ الْإِصْرَارِ، وَالَّذِي يَبْعَثُهُ عَلَى تَرْكِ الْإِصْرَارِ مُلَازَمَةُ الْخَوْفِ».

ثانيًا: أن يندم على فعلها:

يقول ابن القيم في مدارج السّالكين: «فأمّا النّدم فإنّه لا تتحقّق التّوبة إلّا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه».

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110)﴾ [النساء: 19].

قال الضّحّاك: «نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي شَأْنِ وَحْشِيٍّ قَاتِلِ حَمْزَةَ، أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَقَتَلَ حَمْزَةَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وقال: إِنِّي لَنَادِمٌ فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾».

وروى أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن ابن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ».

و أخرج ابن أبي الدّنيا في التّوبة عن عليّ بن أبي

طالب > قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مِنْ ذَنْبِهِ نَدَامَتَهُ عَلَيْهِ».

وروي عن بعض التّابعين } أنّه قال: «إِنَّ الْمُذْنِبَ يُذْنِبُ فَلَا يَزَالُ نَادِمًا مُسْتَغْفِرًا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوقِعْهُ فِيهِ».

ثالثًا: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدًا:

روى عبد الرّزّاق والطّبري وابن أبي حاتم في تفسيرهم عن عمر بن الخطّاب > في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: 8]، قال: «التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: أَنْ يَتُوبَ الرَّجُلُ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ، ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ أَبَدًا».

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39)﴾ [المائدة: 39].

قال الإمام القُشيري في تفسيرها: «من استوفى أحكام التّوبة فتدارك ما ضيّعه، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده، أقبل الله عليه بفضله فغفره، وعاد إليه باللّطف فجبره».

وأمّا إذا كان يستغفر بلسانه ولم يتحرّك قلبه بالنّدم، ولم يستشعر قبح فعله، ولم يعترف بذنبه وهو مصرّ عليه، فهو تائب توبة الكذّابين، وفيهم جاء الوعيد الشّديد في الحديث الحسن عند أحمد والبخاري في الأدب وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: